الخطاب الحالم يتهافت على صخرة الواقع الجاثم

03-8-2003

أما الحالة العراقية فقد كانت ((أم الحواسم)) اسماً مطابقاً لمسماها، وتوجت بأمِّ المفاجآت التي أذهلت أرباب ذلك الخطاب وتركتهم مشدوهين لا يدرون ما يقولون، وكيف يفكرون ويستوعبون هذه المفاجآت الحواسم

بقلم بسام ناصر

في بداية الألفية الثالثة من عمر البشرية وقع حدثان كبيران مفصليان، قلبا المعادلات، وأحدثا انعطافاً حاداً في مسيرة الزمن، أولهما أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م، وما تولّد عنها من تداعيات؛ حيث نجحت الولايات المتحدة في اقتلاع نظام الطالبان من السلطة في أفغانستان، كما وتمكّنت من خلخلة أركان تنظيم القاعدة وفرّقت أعضاءه شذَر مذَر، أما ثانيهما فهو كارثة احتلال القوات العسكرية الأمريكية للعراق بعد سقوط بغداد اللغز !.

لقد صاحَبَ الحدثين الكبيرين - من جانبنا نحن المستهدَفين عرباً ومسلمين - نمطٌ من التفكير، ونسَقٌ من التأويل، أُعليَ فيه من شأن الخطاب التبشيري الموغل في الأمل (المفتقر إلى الواقعية، والمشبع بالأماني العاطفية)، وقد ناضل أربابه إلى حدِّ الاستماتة سعياً منهم إلى قلب المستحيلات وجعلها احتمالات راجحات، ويبدو أن قدَر هذه الأمة مع سيادة ذلك الخطاب، وتحكّم تلك الذهنيات قد غدى مرسوماً باتجاه ترسيخ القابلية واستدامة الاستعداد لعقد الرايات وإخلاص النيات لرموز تنتفخ ظاهراً بطولةً وشموخاً وصموداً وتحدياً، غير أنها خاوية الباطن، هزيلة الداخل، فقيرة الاعتبار، تجيد قيادة الأمة إلى الكوارث العظام، وتتقن فن صنع الهزائم باقتدار.

الظاهرة ذاتها تتكرر، ظاهرة النهود لمناطحة الأعداء، ومنازلة الأشداء الأقوياء بحسابات المقامرين البلهاء، والمغامرين الأغبياء، يستوي في التعاطي مع هذه الظاهرة المفكر النحرير مع العامي الفقير، ويتآخى في رحابها المحلّل الاستراتيجي البصير مع ابن الشارع ذي الوعي اليسير، ويتزامل في أجوائها العالم الفقيه مع الجاهل السفيه، حيث تلوح لهم جميعاً من الآفاق المظلمة بارقة أمل لعلها تبدّد شيئاً من تلك الظلمات الراكب بعضها بعضاً، يحدوهم قول الشاعر:

أعلّل النفسَ بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل.

ينبثق من رحم تلك الحالة (حالة المناطحة والمنازلة) الخطاب الحالم الذي يروم بنزعته الخطابية الهادرة، وجعجعته الصوتية الصاخبة إقناع الجماهير بقدراته الخوارقية الفذة على إنجاز النصر وتحقيق الظفر من خلال تسلحه بالمبشرات وحسن النيات مع إهداره كثيراً من حسابات الواقع والإمكانات، بين حالتي أفغانستان والعراق ساد ذلك الخطاب، وشاعت مفرداته، وسرت روحه في الأمة سريان النار في الهشيم، مما عظم الآمال، وأشاع روح التفاؤل، إلا أن النتائج المفجعة جاءت لتغتال تلك الآمال، وتئد تلك الأحلام، وأغرقت الأمة في بحور متلاطمة من اليأس والقنوط وفقدان الأمل، فيما يلي قراءة تبغي رصد أوجه الشَّبَه، وصور التلاقي والتآخي بين الحالتين، وتحديداً وحصراً محاولة استكشاف أسباب هشاشة ذلك الخطاب، كما تروم إزاحة الستار عن عوراته ومكامن الضعف فيه.

1 - التعويل على التأييدات الغيبية: بحكم أن العقلية السائدة في عالمنا الإسلامي عقلية تنزع إلى التعاطي مع الأحداث وفق ((التفكير الخوارقي))، والذي يجنح دائماً إلى أن يأتي الحسم والفصل من السماء بأسباب ربانية خوارقية•

فإن الأمة - المراد أغلبها - كانت تعوّل كثيراً على التأييدات الغيبية في تحقيق النصر للمسلمين وهزيمة قوات الظالمين المعتدين.

تبرز في هذا الصدد تحديات جسام أمام العلماء والمصلحين تتمثل في مقدرتهم على إشاعة العقليات التي تفقه السنن الكونية وتحترم القوانين الطبيعية التي أودعها الله تعالى في هذا الكون ليتم البناء في رحابها، ولتحكم صياغة الاستراتيجيات على سننها، ولعل التواصل الواعي مع تراث الإمام محمد عبده - الذي كرّس حياته لمحاربة القابلية للاستعمار، وتقويض أركان ((العقل الخرافي)) - يفيد كثيراً في إنجاز بعض تلك المهام. لقد تخلخل ذاك (التفكير الخوارقي) وتصدعت أركانه، وخابت آماله لأسباب منها:

- الوعود الربانية حق لا شك فيه، وصدق لا ريب يخالطه، وهي لا تتبدل ولا تتخلف، بيد أنها لا تعمل في المطلق، بل هي مشروطة مقيدة، وفي كلا الحالتين (أفغانستان والعراق) لم تحقق شروطها، ولم تنجز مطلوباتها.

- التعاطي مع النصوص الشرعية بتأويل قاصر: فمفهوم الإعداد - على سبيل المثال لا الحصر - يقصر على الإعداد العسكري - على قصوره -، ويغفل عن الإعداد المجتمعي بتمتين الجبهة الداخلية وتسوية الخلافات، واستقطاب المعارضين، (في الحالة الأفغانية عجز الطالبان عن استقطاب الحزب الإسلامي بقيادة المهندس حكمتيار، والاتحاد الإسلامي بقيادة عبد رب الرسول سياف... إلخ، وفي الحالة العراقية انهارت الجبهة الداخلية لأنها كانت - في أغلبها - معارضة صامتة).

- القفز على السنن والقناعة بالظواهر: يتهافت ذلك التفكير، ويخذل أصحابه، لأنه يريد أن يحصد ما لم يزرع، ويسعى إلى تحقيق نتائج لم يحسن إنجاز المقدمات المفضية إليها، بل إنه يقفز على السنن والقوانين، ويقنع أربابه بظواهر وشكليات لم تغن عنهم يومي كابل وبغداد شيئاً• صوت خطابي مشهور ((صدامي الهوى)) كان يرتاد بعض مساجد عمان قبل العدوان الأمريكي على العراق بأسابيع صارخاً بأعلى صوته مبيناً مبشرات النصر ! أتدرون ما هي تلك المبشرات؟ إنك إن مشيت في شوارع بغداد فلن ترى امرأة متبرجة سافرة ! إنك إن ذهبت إلى المساجد فستجد روادها من الشباب الأقوياء؟ لقد رآهم يتسابقون على حفظ القرآن... إلخ، إنه القفز على السنن التي لا تحابي أحداً، لا أدري كيف يغيب المنهج القرآني الذي يرفض المداجاة والتسويغ عن خطباء ((التفكير الخوارقي))، فالقرآن يخاطب أهل أُحد بخطاب صريح ومباشر قائلاً لهم: ((أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير)) (آل عمران: 165)، ويخاطبهم كذلك بنفس الوضوح والمباشرة: ((... منكم من

يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة)).

2- تعظيم القدرات الذاتية والاستهتار بقدرات الأعداء: من أبرز ما يميز الخطاب التبشيري الحالم الغارق في الأمل: ثقته العارمة بقدرات من يعول ويراهن عليهم، فهم أصحاب قضية عادلة، ومتحصنون جيداً في خنادقهم ومواقعهم على أرضهم، وهم بارعون في إدارة المعركة بإمكانياتهم المتوفرة لديهم... إلخ. أما قدرات أعدائهم فلا يعرفونها حقيقة، ولا يدركون فعاليتها القتالية، وقدراتها التدميرية إلا بعد أن تحرق الأخضر واليابس، وتدكّ الحصون، وتزلزل القلوب، وتحدث المآسي، وتوقع الفواجع. لعل السبب في تعظيم قدرات الذات والاستهتار بقدرات الأعداء يكمن في تلك الرؤى والمفاهيم الخاطئة المتولدة عن سوء التعاطي مع القضية الأولى (التعويل على التأييدات الغيبية)، فرَمْيُنا مسدَّد بمدد رباني لا يخطئ ولا يخيب (كرمي المنقاش ببندقيته القديمة لطائرة الأباتشي)، أما رميهم وصواريخهم الكروزية، وقنابلهم العنقودية، فالدعاء كفيل بردها إلى نحورهم وتفجيرها في وجوههم !!

3- التضليل الإعلامي وخداع الذات: يمعن ذلك الخطاب كثيراً في التضليل وخداع الذات، ففي الحالة الأفغانية بقيت القلوب منقبضة، والأعصاب مشدودة تنتظر المعارك البرية التي تلتحم فيها الجيوش وجهاً لوجه لتنقضّ أسد المجاهدين الطالبان من معاقلها جاعلة من أفغانستان مقبرة للطغاة المعتدين، وقعت المفاجآت الفاجعات، انهار نظام الطالبان، وانسحبت قواته من معاقلها واحداً تلو الآخر، ولما يظهر على مسرح الأحداث جندي أمريكي ! وصوت الملا محمد عمر يملأ فضاء أفغانستان وذلك بعد سقوط المدن الأفغانية باستثناء قندهار مهدداً ومتوعداً: ((لدينا مخططات ضخمة لتدمير أمريكا !!)). أما الحالة العراقية فقد كانت ((أم الحواسم)) اسماً مطابقاً لمسماها، وتوجت بأمِّ المفاجآت التي أذهلت أرباب ذلك الخطاب وتركتهم مشدوهين لا يدرون ما يقولون، وكيف يفكرون ويستوعبون هذه المفاجآت الحواسم• بعد هزيمة حزيران كتب المفكر ياسين الحافظ قائلاً: ((إن الأسوأ من الهزيمة، والأدعى منها إلى الأسى والتشاؤم هو الوعي الزائف الذي قابلت به الانتلجنسيا العربية الهزيمة، إذ لو أنها كانت تملك وعياً مطابقاً لما وقعت الهزيمة•••)) (الهزيمة والأيديولوجيا المهزومة - ياسين الحافظ). هل من دوافع ثقافية تنقلنا جميعاً من موقع هزيمة الوعي إلى وعي الهزيمة؟.